من التفسير غير الموضوعي للقرآن الكريم

[illegible]*

مدخل البحث

١ ـ أعتقد أنه من الوضوح بمكان عدم وجود حاجة لبيان افتقار المسلم للتعرف إلى مضامين كتاب الله، عز وجل، حتى يتمكّن من صياغة شخصيته وفق ما رسمته: أحكاماً وعقائد وأخلاقاً، لأن أساس ذلك كله ـ بوصفه مقوماً للشخصية الإسلامية ـ موجود في كتاب اللهتعالى. ولما كان من غير الميسور لكل مسلم أن يتعرَّف إلى مضامين القرآن، لعدم إلمامه بالوسائل المؤدية إلى ذلك، كان لا بد من الرجوع إلى المفسرين والتفسير، لأنّ التفسير مفتاح الكتاب. وفي هذا المعنى بالذات يكمن قول المحققين بأن ما كان ظاهراً لا يحتاج إلى إظهار من الكتاب لا يكون موضوعاً للتفسير، بعكس ما يحتاج إلى إظهار، فإنه هو الذي يكون مفسراً. فهم يأخذون في مفهوم التفسير كونه يظهر ما يحتاج للإظهار ويجلوه، حتى يُسمَّى تفسيراً، فحاجتنا للتفسير إذاً حاجة من تكون أشياؤه في صندوق مقفل يحتاج إلى مفتاحه ليتمكن من فتحه وأخذ ما يريد منه، فالتفسير والمفسِّرون طريقنا إلى فهم الكتاب الكريم.

٢ ـ ويتّضح ذلك من معرفة معنى التفسير لغة واصطلاحاً.

فالتفسير، لغة، الكشف والإظهار: سواء كان كشفاً حسياً أم معنوياً، فإذا أضفنا الكشف إلى معموله تحددت نسبته، أي إذا نسبناه للكتاب قيل: توضيح معنى الآيات وسبب نزولها وما يرتبط بها من شؤون، وهذا معنى التفسير اصطلاحاً، وبهذا عرّفه الجرجاني في تعريفاته، ولسان العرب في مادة فسر، ومجمع البحرين

---

* مفكر إسلامي من العراق، وأحد أبرز خطباء المنبر الحُسيني.

في المادة نفسها والصراط المستقيم لآية الله البروجردي والفخر الرازي في مقدمة تفسيره الكبير والإمام الخوئي أبو القاسم في البيان. كل هؤلاء[1] عرّفوه بما ذكرنا لغة واصطلاحاً. ولا حاجة للزيادة على تعريفاتهم، لأنها تنسج على هذا المنوال. وإنما أريد التأكيد على هذا المعنى لبيان أن التفسير هو كشف الجملة القرآنية لفظاً ومضموناً لا كشف ما هو ليس من الجملة القرآنية وتحميل القرآن ذلك، بدعاوى لا تصمد أمام المنهج والعلم.

بقي أن نقول: إن عملية الكشف والإظهار، هي الأخرى، لها وسائلها المعترف بها، ولا تتمثل بمجرّد الادّعاء بأن معنى الآية كذا من دون اعتماد الوسائل والعلوم المؤدِّية إلى ذلك. وقد أفاض علماء التَّفسير في بيان ذلك، ونصُّوا عليه وحدَّدوا ما هو معترف به وما ليس كذلك. وإن كان مع الأسف الشديد أنهم لم يلتزموا بذلك في مقام التطبيق، فاعتبروا أقوال بعض المفسرين حجة مع أنها لم تلتزم بالشروط التي ذكروها، وسيمر بنا ذلك.

٣ ـ وبناءً على أن التفسير هو إيضاح مراد الله، عزّ وجل، من كتابه الكريم، يكون السؤال هنا: هل إن تفاسير المسلمين جميعها تلتزم بذلك أو أنها قد تتساهل في تطبيق بعض الشروط، ما دام ذلك يؤدي إلى نصرة المذهب أحياناً، أو إلى دعم رأي من الآراء يتبناه المفسر أو غير ذلك؟ وفي هذا المعنى بالذات قد نرى بعض المفسرين يستند إلى مَنشَأ انتزاع وإن كان بعيداً، فيعتمد عليه في تبنّي رأي معين، وهنا نلمس له مسوّغاً إلى حد ما، ولكن هناك تفسيرات لا تتصل وشائجياً ولا جزئياً بمضمون القرآن، بل قد تقابل المضمون أحياناً، ومع ذلك تعدّ تفسيرات مقبولة عند بعضهم. وهذا ما ينبغي أن تسلط الأضواء عليه وتعرى دوافعه.

إن في تفاسير المسلمين منهجاً يسمى بالمنهج الباطني إذا اطلع عليه المرء سيرى العجائب في ذلك، كما أن بعض الظواهر في القرآن المحتملة لأكثر من وجه هي الأخرى منشأ لانتزاع آراء عجيبة يعرفها من له إلمام بتفاسير المسلمين. وفي هذا البحث المتواضع سيرى القارىء طرفاً مما ذكرناه من تطبيق الآية على مصاديق قد لا تتوفر فيها شروط الانطباق، وهي مجرد نموذج من كم كبير، ولا أتعجل ذلك لأنه سيرد في محلِّه.

٤ ـ وهنا نقول: لا بدّ من اعتماد منهج معين يقوم على تحرِّي الموضوعية التامّة في تحديد مضامين القرآن الكريم واستبعاد ما لحق بها من إضافات أملاها الهوى والهدف المشبوه أو القصور أو الغفلة، أو غير ذلك من العوامل التي وإن اختلفت، فإن نتيجتها واحدة، وهي أنها تؤدي إلى أحد أمرين: إما العمل بغير ما أنزل الله مع تنبهنا إلى هذه المفارقات الموجودة في التفسير وإما إلى الابتعاد عن الأخذ من القرآن ما دامت الوسائل إليه غير سليمة، وذلك ما يسلخ المسلم عن إسلامه إذا انقطع عن مصدره الديني، فما الحل إذاً؟

إن الحل الوحيد الذي ينقذ المسلم من هذه اللوازم التي ذكرناها هو المنهج الموضوعي في تفسير القرآن، والذي ينهل منه الفرد المسلم وهو مطمئن إلى أنه يأخذ من القرآن لا من نبع آخر. بقي أن نسأل: ما هو الطريق للحصول على ذلك المنهج؟ وأول ما يتبادر للذهن طريقان، وهما شاقان كما أعتقد، ولكن النتائج الكبيرة لا تحصل من دون مشقة وجهد كبيرين كما هو معلوم.

الطريق الأول، هو الطريق الفردي الذي يتم على نطاق البحث الشخصي عن التفسير الموضوعي؛ وذلك يتطلب أن يكون الباحث ممتلكاً من الأسس والمقومات لخوض هذا الميدان، وإذا تم ذلك فهو أيسر من ناحية الوصول إلى تحقيق المطلب، لأن الباحث يمتلك الوصول من دون عقبات للمطلوب، ولو كان نطاق الاستفادة من ذلك محدوداً ومقصوراً على أفراد ممن يرتضي ما انتهى إليه الباحث من نتائج. بعكس ما لو كان الباحثون بعدد أكبر ونوعية مختلفة، مما يكون عادةً أدعى إلى القبول، وأوثق بالنفوس لقرب الجماعة إلى الكمال النسبي أكثر من الفرد.

الطريق الثاني، هو الطريق الذي يضم جماعة كبيرة تتضافر جهودها على تحرِّي أكثر الوسائل نجاعة وموضوعية للوصول إلى التفسير المطلوب، وهو طريق لا أقول إنه متعذِّر، ولكنه في غاية الصعوبة، لأنه يستلزم غربلة كثير من التراث والآراء التي لا يسهل التخلي عنها نفسياً وموضوعياً، وسيواجه ذلك بحملات في ما أعتقد أنها ستكون شرسة، وسيتهم القائمون بذلك بالاعتداء على التراث وعلى المقدّسات

وبممارسة محاولات تخريبية. ولنا في ميادين المعرفة المتنوّعة تجارب في ذلك كثيرة. ومن الشواهد الحية التي هي قائمة فعلاً ما تعرض له الإمام السيد عبد الحسين شرف الدين في مؤلفاته من إلقاء الضوء على بعض الحقائق وما تعرض له من حملات حول كتابه: «المراجعات» وحول كتابه «أبو هريرة»، مع نعومة أسلوبه ودقة معلوماته، ما أوجب أن يتصدى الباحث القدير العلامة السيد علي الميلاني لتفنيد تلك المكابرات في سلسلة متتالية من الموضوعات نشرتها مجلة «تراثنا» الموقرة التي تصدر عن مؤسسة أهل البيت بقم المقدسة. وما تعرض له الشيخ محمود أبو ريا عند تأليفه كتابه «أضواء على السنة» وغيرهما الكثير الكثير.

ومن دون هذين الطريقين لا سبيل إلى الوصول للتفسير الموضوعي، ولا مندوحة لنا إلا أن نظل نرجع للتفاسير الموجودة على ما فيها من دواءٍ لا أريد التعرض لها هنا، بل لا بد من إفراد بحث مستقل لها يرسم خطوطها العامة من دون تفاصيلها ومفرداتها، فهي على درجة من الكثرة، بحيث لا يتسع لها بحث أو أكثر، وهي مثبتة في تفاسير جميع الفرق الإسلامية. وأهم الجوانب التي يكثر فيها التفسير غير الموضوعي الجانب السياسي، وذلك مؤشر نلمح من ورائه أصابع الحكام ومكانة الحاكمين أنفسهم. والجهات الباقية كلها تتصل من قريب أو بعيد بأشخاص الحكام وآرائهم ومذاهبهم العقائدية والفقهية، اللهم إلا إذا استثنينا جزءاً من التفسير يتحكم به العامل القومي أو الوطني. وعلى سبيل المثال، إذا رجعنا إلى تحديد بعض المواقع التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، مثل الطور، نرى العامل الوطني واضحاً في ذلك؛ حيث يذهب بعضهم إلى أنه في الشام، ويذهب آخرون إلى أنه في النجف بالعراق، ويذهب آخرون إلى مكان آخر، وعندما تقرأ قوله تعالى: ﴿**ما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا**﴾ [هود/٢٧] تقرأ ليحيى بن أكتم، قاضي قضاة المسلمين: إن الأراذل هم الحجام والكناس من غير العرب، كما ذكر ذلك القرطبي في تفسير الآية المذكورة. وهكذا نجد من أمثال ذلك الشيء الكثير، ولكنه يبدو عند التأمل مرتبطاً، بشكل أو بآخر، برغبات الحكام.

وفي هذا البحث نموذج من التفسير استعرضته على عجل لإلقاء ضوء على هذا التيار الذي لا يغترف من المنبع، وإنما يغترف من الموروث الذهني، متعلّقاً

ببعض ملامح الآية العامّة ومحاولاً التأكيد على أنها في شخص معين أو أشخاص وفي موضوع خاص. وأردت قبل قراءة الموضوع أن أضع هذا المدخل أمام القارئ تنبيهاً للذهن حتى يسبر أغوار المحاولات الهادفة لجرّ النص إلى ما يدعم الموروث، وتبقى بعد ذلك الملامح التي تستجمع لتقود القارئ إلى الاستنتاج الصحيح غير خافية على القارئ الفطن.

إنَّ هذا القرآن يَهْدي للَّتي هي أقوم

لا يمكن لواصف أن يصف القرآن بأدقّ ممَّا وصف به القرآن نفسه، ثم بما وصفته به السنَّة النبوية الشريفة. وقد توفَّر هذان المصدران على وصف القرآن بجميع الصِّفات الكريمة التي تُعنى بكل ما يحقِّق التكامل، ويعالج النقص. بداهة نقول: إن القرآن هو رسالة السماء للعالم الذي يحتاج إلى أسباب الوقاية والعلاج من كل ما يهدده من آفات. وبعد ذلك، يحتاج إلى من يسدِّده في سيرته إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وتتضح هذه الوظائف في ما ورد في القرآن الكريم والسنّة الشريفة عمّا ذكرناه، فالقرآن الكريم يقول: **﴿قد جَاءتكم مَوْعِظَةٌ من ربكم وشفاءٌ لما في ٱلصُّدور﴾** [يونس/ ٥٧]. ويقول: **﴿يا أيّها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾** ويقول: **﴿ذلك الكتابُ لا رَيْبَ فيه هُدَىً للمتَّقين﴾** [البقرة/ ٢].

فالقرآن يعظنا بتقديم العِبر والتجارب التي مرت بها البشرية، ويحدِّد لنا معالم الطريق، ويفترق عن غيره من الواعظين بأن وعظه نابع من إحاطة كاملة بكل ما في الكون من خير وشرٍّ ونقص وكمال، بينما الآخرون من الواعظين قد تكون تجاربهم منحطَّة أو ناقصة ومعالجاتهم غير وافية، ولذلك قد لا يحصل بها الشفاء، بينما القرآن شفاء لما في الصدور، وماذا في الصدور غير دواعي الهوى والعصبية والغرور التي تنعكس على معالجات الإنسان وإنتاجه في مضامير العلم والثقافة وتأثره بالمؤثرات التي يمكن تجاوزها لو نهى النفس عن الهوى واستجاب لدواعي التربية وضبط النفس.

والقرآن يحمل الدعوة إلى الحياة اللائقة بالإنسان لكونه سيد الموجودات، لا للحياة الغرائزية التي يشاركنا فيها حيوان من أحط الحيوانات أو كائن من بضع خلايا، بل هي الحياة الكريمة التي تستهدف الحق والخير والجمال والتسامي على الغرائز، وإلاّ فقد كان المخاطبون بقوله تعالى: ﴿إذا دعاكم لما يحييكم﴾ أحياء متصفين بالحياة العادية ذات الأكل والشرب وممارسة اللذائذ الأخرى، ولكنه كان يدعوهم إلى حياة من نمط آخر. إنه يريدهم أكبر من النّزعات التي تهبط بهم عن المستوى المؤمل للإنسانية.

والقرآن هدى للمتقين، فهو سبب تقواهم، هداهم إلى اتقاء النواقص وإلى السمو بالنفوس ويسّر لهم الدلائل التي توصلهم إلى ما يحقق السعادة ويسلكهم في الطريق الأقوم. وفي القرآن الكريم آيات كثيرة توضح أنه كتاب التربية الأشد والأكثر فاعلية في بناء الحياة وأنّه الأجمع للأسباب والوسائل المؤدية إلى الأهداف الكبيرة التي أرادها الله تعالى للإنسان، ليكون مؤهلاً لحمل الخلافة التي استخلفه الله تعالى لها بقوله تعالى: ﴿وجعلكم خلائف الأرض﴾.

إذاً فالقرآن هو الرافد الأول الذي شرح لنا أهداف رسالة السماء في صنع الحياة وصنع الإنسان الذي لأجله بنيت الحياة، وهو روحها وسيدها، والذي يقوى على أن يرتفع بها إلى مستويات لائقة ويحوّلها إلى نعيم ويخفّف من ويلاتها وشقائها، كما أنّه بإمكانه أن يهبط بها إلى الحضيض ويوصلها إلى درجة لا ترتفع بها عن مستوى البهائم، وهو يملك القدرة على الحالتين ويحمل الاستعداد للصّعود والهبوط تبعاً للأجواء والمؤثّرات.

أمّا الرّافد الثّاني، وهو السنّة الشريفة التي توفرت على شرح ما في كتاب الله عز وجل من عطاء لمن يعرف الأخذ منه، ومن آداب لمن يتوفّر على التأدب بها. فلنستمع إلى طرف من ذلك في ما ذكرناه. فقد ورد عن الأئمة عليهم السلام في الكافي، عند ذكر قوله تعالى: ﴿وشفاء لما في الصدور﴾: قال: من نفث الشيطان[٢].

وعن النبي صلى الله عليه وآله: «أنه هدى من الضلالة وتبيان من العمى واستقالة من العثرة ونور في الظلمة وضياء في الأجداث وعصمة من الهلكة ورشد من الغواية وبيان من

الفتن وبلاغ من الدنيا إلى الآخرة»[٣]، وعنه ﷺ: «لا يعذب الله تعالى قلباً وعى القرآن»[٤] وعنه ﷺ: «أشراف أمتي حملة القرآن وأصحاب الليل»[٥].

وورد في البخاري عنه ﷺ: «خيركم من تعلم القرآن وعلّمه». وروى مسلم عن عائشة، عنه ﷺ: «الماهر بالقرآن مع السَّفَرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويُتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران»[٦].

يتضح، من مجموع هذه الآثار الشريفة، ما في القرآن الكريم من تأثير متوقع على حملة القرآن المتأثرين به والذين يقرأونه قراءة تدبُّر، ويحملون مضامينه إلى السامعين ليأخذ بدوره الأثر نفسه في القلوب الطاهرة. ولا شك في أن أوّل من يجب أن يتأثر به هم أهل القرآن لينعكس على سلوكهم وألسنتهم فيحكم أفعالهم وأقوالهم.

وانطلاقاً من هذا يتساءل المعنيُّون بالقرآن وتفاسيره والواقفون على ما في ذلك من ممارسات لا تلتقي ـ مع الأسف الشديد ـ وخلق القرآن الذي يريد ممَّن عُرف بأنّه من أهل القرآن أن يكون، أوَّلاً، موضوعياً يتبع القرآن ولا يريد أن يتبعه القرآن ليدعم آراءه التي يدعو بها. فالقرآن إمام وليس بمأموم، والقرآن هادٍ وليس بمهدي، والقرآن مؤدّب ومعلم وليس بتلميذ تملى عليه الأقوال.

وأن يكون ثانياً بمستوى سعة القرآن، أي ملمّاً بالمقومات الأساسيّة في معرفة مضامينه وخطوطه العامة، متجرِّداً عن مسبقات تحمله على البعد بالنص عن مساره وموطنه إما لنقص في الإحاطة بالمعلومات أو لتراث يحمله ليس من الهين عليه التخلي عنه، أو من عدم قدرة على الارتفاع إلى آفاق القرآن، فالأولى بمثل هذا أن لا يقحم نفسه في أجواء ليس بمؤهل لها.

وأن يكون ثالثاً ممن يظهر خلق القرآن على لسانه، فيكون عِفّاً في فكره ولسانه، مهذّباً في أدائه، منصفاً مع من يخالفه في الرأي، ما دام هذا المخالف يصدر عن موازين وضوابط صحيحة. أمّا إذا كانت تلك الضوابط والموازين غير صحيحة، فيكون له أسلوب خاص في مقارعتها لا ينبغي أن يخرج بالمفسِّر عن حدود الآداب العامة. تضاف إلى ذلك عدة صفات ينبغي أن تتوافر في المفسِّر، وقد

تعرّضت لها كتب التفسير وذكرها العلماء ولا حاجة للإفاضة فيها. لكننا نقول: كم من مفسري المسلمين (رضوان الله عليهم) التزموا بهذا المنهج مع من يخالفهم في آرائهم؟ اللهم إنهم غاية في القلة، إن كثيراً من أساطين المفسرين تجمح أقلامهم، وتصدر عنهم عبارات غير لائقة وينقصها منهج الحوار الذي يتناسب ومكانة القرآن الكريم. ولئلا نطيل سنقدم نموذجاً من ذلك في تفسير بعض الآيات تفسيراً سياسياً غير موضوعي.

نموذج من التَّفسير السِّياسي

قال الله تعالى: **﴿يا أيُّها الَّذين آمنوا من يَرْتَدَّ مِنكُم عن دِينه فَسَوفَ يأتي الله بِقَوْمٍ يُحِبُّهم ويحبُّونه أذِلَّةٍ على المؤمنين أعزَّةٍ على الكافرين يُجاهدون في سَبيْل الله ولا يَخافون لومة لائم ذَلكَ فضلُ الله يؤتيه من يشاءُ والله واسعٌ عَلِيمٌ﴾** [المائدة/ ٥٤].

تعدُّ هذه الآية الكريمة من الآيات التي فسِّرت بالمنهج السياسي، وتنازع المسلمون حول مضامينها تنازعاً ليس موضوعياً، لأن النزاع الموضوعي لا تخلو منه آية، وهو لا يثير حساسية عند المسلمين لاختلاف القدرات الفكرية عند المفسرين وقابليّة النص للتنازع. أما التفسير الذي يحسّ القارئ بدفع الآية نحوه وتكليفها بأن تكون مدركاً لما يريده المفسِّر، فهذا تفسير لما في الرؤوس وليس لما في القرآن، تشبثاً بمنشأ انتزاع بعيد جداً، وسيتضح هذا المعنى خلال البحث. وهذه الآية قد تسلك في قسم التفسير بالمأثور من حيث تفسير بعض مضامينها بآثار واردة، وقد تسلك في قسم التفسير بالرأي عند من فسرها ضمن النهج المعتمد للتفسير بالرأي بشروطه. وعلى العموم، فالقرآن، كما يقول تلميذه وعدله الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، حمال ذو وجوه، وإن تكفَّلت القرائن غالباً بتحديد مضامينه، ومعها لا تبقى حجة لمن لم يأخذ بما تحدده القرائن. وليس هذا مكان ذكر السر في جعل القرآن حمالاً لأكثر من وجه، وما الحكمة من ذلك، فلذلك مكان آخر، والآن حان الوقت لشرح مضامين الآية بتجزئة هيكلها:

أولاً، إن قوله تعالى: **﴿يا أيُّها الذين آمنوا﴾** يتضمن تذكير المسلمين بأنهم آمنوا بمضامين القرآن طواعية، والمؤمن عن طواعية لا ينبغي أن يكون مهزوزاً في

محتواه العقائدي، وإلاّ عاد مجرّد حامل للقرآن غير واع لما فيه، فهو مجرد وعاء، وليس كياناً متفاعلاً مع محتويات الكتاب. وهذا المعنى مما ابتلي به المسلمون عبر تاريخهم، ثم أخبرت الآية المسلمين وأنبأتهم بحكم من يرتد حتى تزرع الردع مسبقاً في النفوس عن الإقدام على مثل هذه المفارقة. ولا يفوتنا معنى التشريف للمخاطبين بنعتهم بالإيمان وتنبيه غيرتهم لحماية هذا الإيمان الذي شرفوا به.

وثانياً، وفي قوله تعالى: ﴿من يرتد منهم عن دينه﴾ تأتي أمور:

١ ـ معنى الردّة وهو الرجوع، ومنه قوله تعالى: ﴿أَلْقَاه على وَجْهه فارتَدَّ بَصِيْراً﴾ [يوسف/٩٦] ومنه قوله تعالى: ﴿قَبْل أن يَرْتدّ إليك طرفك﴾ [النمل/٤٠]. وبهذا المعنى يتحدَّد المتعلِّق، فقد يكون رجوعاً عن الدين بالجملة، وقد يكون رجوعاً عن معنى خاص.

وقد فسَّر كلّ من ابن منظور، في «لسان العرب»، مادة الردّة، وابن الأثير في «النهاية» في المادة نفسها، الردة هنا بالرجوع عن بعض الواجبات دون الكفر الذي هو رجوع عن جملة الدين، لأن الرجوع أعم من أن يكون عن الكل أو البعض، هذا إذا ورد لفظ الردة غير مقيد، أما إذا قُيِّد فقيل: ارتد عن دينه، كما هو منطوق الآية، فيفيد الرجوع عن جملة الدين. بقي أن نسأل: من هم المعنيّون في هذه الآية؟

٢ ـ من هم هؤلاء؟

اختلفت التفاسير، في ذلك، بين من يقول: إنهم إحدى عشرة فرقة، كما ذكر الألوسي في «روح المعاني»، ثلاثة منهم في عهد رسول الله ﷺ، وهم بنو مدلج ورئيسهم الأسود العنسي، وبنو حنيفة قوم مسيلمة الكذاب، وبنو أسد قوم طليحة بن خويلد، وسبع فرق في عهد أبي بكر، وهم فزارة قوم عيينة بن حصن، وغطفان قوم قرة بن سلمة، وبنو سليم قوم الفجاءة بن عبد ياليل، وبنو يربوع قوم مالك بن نويرة، وبعض بني تميم جماعة سجاح، وكندة قوم الأشعث، وبنو بكر قوم الحطم بن زيد بالبحرين، وفرقة واحدة في عهد عمر بن الخطاب، وهي بنو غسان قوم جبلة بن الأيهم، بينما عدهم بعض المفسرين بعدد أقل من ذلك، وليس من المهم عدد المصاديق، وإنما المهم من ينطبق عليه عنوان الردَّة.

ولنقف هنا قليلاً عند بني يربوع، قوم مالك بن نويرة، ونسأل: هل كانوا مرتدّين أو أريد لهم ذلك؟ ولنترك للتحقيق هنا أن يقول كلمته وبأقلام من هم مؤتمنون على الخليفة أبي بكر (رض) وقائد الحملة خالد بن الوليد. إن التحقيق هنا يؤكد أن القوم لم يرتدُّوا ولم ينكروا فرض الزكاة، وإنما حصلت لهم شبهة في دفع الزكاة.

فابن قيّم الجوزيّة يذهب إلى أنهم كانوا يرون أن دفع الزكاة مشروط في تلك الآونة بوجود النبي ﷺ حتى يصلي عليهم، استنتاجاً من قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِم صَدَقَةً تُطَهِّرُهُم وتُزَكِّيهِم بها وصَلِّ عَلَيْهِم إنَّ صلاتك سكنٌ لهم﴾ [التوبة/١٠٣][٧]. وحيث إنَّ النبي ﷺ لم يكن موجوداً حتى يصلّي عليهم فإن الشرط لم يتحقق فلا يتحقق المشروط لأنه عدم عند عدم شرطه. وليت هذا التأوّل أعطاهم المعذورية كما أعطى المرأة التي تسررت مملوكها متأولة قوله تعالى: ﴿إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم﴾ [المؤمنون/٨] فاستشار عمر بن الخطاب (رض) أصحاب النبي ﷺ فقالوا: لا شيء عليها إنما تأوّلت آيةً من كتاب الله. فقال عمر: لا جرم، لا أُحلُّك لحرٍّ بعدها، عقاباً لها، وجزّ رأس المملوك[٨] وعلى العموم، فعلى رأي ابن القيم إنهم تأولوا الآية، وعلى رأي آخرين أنهم قالوا: لا ندفعها إلا لمن نصَّبه النبي ﷺ، ولم ينكروا وجوبها، والظاهر أنَّ السر هنا. وقد نصّ التاريخ أن خالداً والجيش معه دخلوا حي مالك بن نويرة وقومه وهم يصلُّون، فرأوا صلاتهم، وسمعوا أذانهم. ولذلك لم يرمهم الخليفة عمر بالردّة عن الدين والرجوع عن الإسلام، فقد دخل على الخليفة أبي بكر، وقال وأكثر، وقال: «إن عدو الله عدا على امرىء مسلم فقتله ثم نزا على امرأته». فلما رجع خالد تلقاه عمر فانتزع أسهماً كان خالد غرزها في عمامته، وقال: قتلت أمرأً مسلماً ثم نزوت على زوجته والله لأرجمنك بأحجارك، وخالد لا يكلمه وهو يظن أن رأي أبي بكر مثل رأيه فيه، فدخل على أبي بكر واعتذر فعذره أبو بكر، وتجاوز عما كان في حربه تلك، فخرج خالد حين رضي عنه أبو بكر وعمر جالس في المسجد، فقال لعمر: هلمّ إلي يابن أم شملة، فعرف عمر أن أبا بكر قد رضي عنه فلم يكلمه ودخل بيته[٩].

وممّا يؤكد عدم ردة مالك وأصحابه قول الخليفة الأول، معتذراً عن خالد بأنه اجتهد فأخطأ، وليس الخطأ المدَّعى هنا، إلا الخطأ في التطبيق، وإلا لو كانت ردته ثابتة فلا مكان للعذر هنا لأن حكم المرتد القتل كما هو معروف. فيتضح مما مر أن مالكاً وقومه لم يكونوا مرتدين ولم ينكروا وجوب فريضة الزكاة، وإنّما قوتلوا لأن هناك عوامل أخرى حملت خالداً على قتلهم ولا يعنيني بحثها هنا.

ثالثاً، من هم الذين توعَّد الله، تعالى، المرتدين بهم، ونعتهم بأنهم قوم يحبون الله تعالى ويحبهم الله تعالى؟ وهنا لا بدّ من الإشارة إلى دخول الآية في قسم المفسّر بالمأثور لاعتماد هذا المقطع عند فريق من المفسرين على الروايات الواردة في تعيين هؤلاء، كما يشار إلى أن هذا المقطع من الآية مجمل يفتقر إلى دليل خارجي، والدليل هناك منقول ومعقول. ولما كان قسم المنقول من المأثورات دخلت عوامل غير منضبطة من السند والدلالة في هذا المقام، فذكر بعضهم جهات معينة وذكر آخرون جهات أخرى. وإذا كان هذا المقطع مجملاً تدخل الآية في قسم المتشابه لأنهم في تعريفهم للمتشابه عدّوا قسماً منه ما يدخل فيه المجمل والمؤوّل كما نص الرازي على ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿**فيه آياتٌ مُحْكَمات**﴾.

١ ـ ولنر ماذا يقول المفسّرون هنا في تعيين القوم، فقد ذهب الفخر الرازي، في تفسيره، إلى عدة أقوال، فقال: اختلفوا من هم، فقال علي والحسن وقتادة والضحاك وابن جريج هم أبو بكر وأصحابه، لأنهم هم قاتلوا أهل الردة، وقول آخر: إنّها نزلت في الأنصار لأنهم نصروا الرسول وأعانوه على إظهار الدين، وقال آخرون: هم الفرس، فقد روي أن النبي ﷺ عندما سئل عن هذه الآية ضرب بيده على عاتق سلمان، وقال: هذا وذووه، ثم قال: لو كان الدين معلّقاً بالثريا لناله رجال من أبناء فارس، وقال قوم: «إنها نزلت في علي عليه السلام ويدل عليه وجهان: الأول أن النبي ﷺ لما دفع له الراية يوم خيبر قال: «لأدفعنَّ الراية غداً إلى رجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله». وهذه هي الصفة المذكورة في الآية، والثاني أن الله تعالى ذكر بعد هذه الآية قوله ﴿**إنّما وليّكم اللهُ ورسُولُه والذين آمَنُوا الذين يُقيمون الصَّلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون**﴾ [المائدة/ ٥٥]. وهذه الآية في حق علي،

فكان الأولى جعل ما قبلها أيضاً في حقه»[١٠] ثم عقب على ذلك بقوله: ولنا في هذه الآية مقامات.

المقام الأول، إنها من أدل الدلائل على فساد مذهب الإمامة من الروافض، ومذهبهم أن الذين أقروا بخلافة أبي بكر وإمامته كلهم كفروا، وصاروا مرتدِّين لأنهم أنكروا النص الجلي، فنقول: لو كان كذلك ـ أي لو كان هؤلاء مرتدين ـ لجاء الله بقوم يحاربهم ويقهرهم ويردهم إلى الدين الحق، بدليل قوله تعالى: ﴿فسوف يأتي الله بقوم﴾ الخ.

وكلمة من في معرض الشرط للعموم فتدل على أن كل من صار مرتداً عن الإسلام فإن الله يأتي بقوم يردهم ويبطل مذهبهم، ولما لم يكن الأمر كذلك بل بالضد فإن الروافض هم المقهورون الممنوعون من إظهار مقالاتهم الباطلة أبداً منذ كانوا علمنا فساد مقالتهم.

المقام الثاني، يجب أن يقال: إنها نزلت في أبي بكر، والدليل عليه وجهان، الأول أنها مختصة بمحاربة المرتدين، وأبو بكر هو الذي تولى محاربة المرتدين، والوجه الثاني هب أن علياً حارب المرتدين، ولكن محاربة أبي بكر مع المرتدين كانت أعلى حالاً وأكثر موقعاً في الإسلام من محاربة علي مع من خالفه في الإمامة. وعلل ذلك بأن الأحوال بعد وفاة رسول الله ﷺ كانت مضطربة فأرساها أبو بكر. أما في أيام علي فالأحوال مستقرة، وبوسع من أراد التوسع في التفاصيل الباقية، الرجوع إلى تفسير الآية من «مفاتيح الغيب» وقد أخذنامنها ما يدخل في صلب البحث.

وتعقيباً على ما مرَّ، نقول: تعقيباً على ما ذكره الرازي تجب الإشارة إلى أمور ترتبط بالموضوع.

أ ـ لم يقتصر الرازي، في تعيين المرتدين ومن قاتلهم، على المأثور والآثار في ذلك، بل تعدَّاه إلى الاستنتاج، فمما أثر ذكر أن المقصود بهم الفرس على بعض الروايات، وأهل اليمن على روايات أخرى. ومن تعيين هذين يستفاد أن المقصود بالمرتدين ما يقع تحت هذا العنوان بصورة عامة وليس في هذه الآونة التي تلت وفاة الرسول ﷺ كما هو واضح، لأن الفرس وأهل اليمن لا إسهام لهم في تلك الآونة

في قتال المرتدين. أما في بعض كلامه الآخر فلم يعتمد على المأثور، وإنما استنتج ذلك من قرائن أخرى تنتهي إلى الردة بمعناها العام وتصدي المسلمين لقتال المرتدين في كل وقت وكل مكان، كما هو رأيه في تعيين الأنصار بأنهم هم المقصودون، وكذلك بذكره للوجه الذي يذهب إلى أنهم علي عليه السلام وجيشه، لأنهم قاتلوا المرتدين بعد ذلك، أما في ما يخص القول بأنه أبو بكر (رض) ومن معه، فقد استفاد ذلك كما صرح به من أن الذي قاتل المرتدين في تلك الآونة هو أبو بكر. وهذا لا يتم إلا على أساس أن قتال أبي بكر للمرتدين هو من مصاديق هذا المفهوم العام وإلا فلسان الآية لسان عموم. ولأجل ذلك قلت إن الآية أحياناً تحسب مما فسر بالمأثور وأحياناً بما فسر بالرأي والاجتهاد بشروطه.

ب ـ إن ظاهر قوله تعالى: يجاهدون في سبيل الله يفيد مباشرة الجهاد من قبل المجاهدين كما في قوله تعالى: ﴿وفضّل الله المجاهدين على القاعدين﴾؛ حيث يراد من مارس الجهاد بنفسه لأن الأصل الحمل على الحقيقة لا المجاز، ولم يجاهد مباشرة بنفسه من الخلفاء إلا علي بن أبي طالب، فلم يعرف عن أحد منهم أنه نزل بسيفه وقاتل غيره، وهذا ما سنشير إليه. أما إذا قيل إن المراد من الجهاد هو الشخوص والتوجه والعزم والأمر بذلك، فهذا لا يقتصر على شخص بعينه بل يعم كل من توجه وعزم وأسهم في الأمر بذلك.

جـ ـ إن الفخر الرازي ذهب، في تحليله، إلى لزوم ما لا يلزم، وأعطى قاعدة كلية في حين أنها لا تنطبق على أكثر الموارد، وذلك حين يقول: «فتدل على أن كل من صار مرتداً عن الإسلام فإن الله يأتي بقوم يردهم ـ على حد تعبيره ـ ويبطل مذهبهم». وهنا أمران: الأول أن هذا العموم مقيد بالحس، والحالة القائمة خير شاهد على ذلك، فما أكثر المرتدين وليس هناك من يردهم ويبطل مذهبهم، والثاني إنا ذكرنا في صدر البحث أن الردة إذا قيدت فقيل: ارتد عن دينه أفادت العموم، أما إذا كانت الردة بمعناها، وهو الرجوع عن بعض الأمور الأخرى التي لا تشكل إنكار ضرورة، مثل تعيين مصرف الزكاة بعد الإيمان بوجوبها، فلا تنطبق عليها أحكام الردة. وعلى العموم فإن الآية التي تشرع حكم الردة كباقي آيات الأحكام على نحو القضية الحقيقية وليست على نحو القضية الخارجية، وفي ما

يخص قوم مالك بن نويرة فإن التحقيق ينتهي إلى أنهم ليسوا بمرتدين، كما أسلفنا، ويوسع الباحث المنصف المتجرد عن الحكم سلفاً أن يرجع ما كتب حول ذلك، ويدرس أجواء الواقعة بموضوعية في مختلف المصادر.

د ـ إن دعوى أن محاربة أبي بكر للمرتدين أعلى حالاً من محاربة علي للمرتدين هي من أول الكلام، وذلك لأن جملة منهم كانوا قلة، وسلاحهم وكراعهم كان قليلاً، ويقابلهم المسلمون بسلاحهم وإجماعهم على قتال المرتدين، في حين أن من قاتلهم علي بن أبي طالب هم من قلب الجماعة الإسلامية، وفي صميم المجتمع الإسلامي، وأهمية ذلك واضحة. هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية أن بعضهم له موقع كبير في الساحة، وله بريق يجتذب كثيراً من المسلمين، وتلك محنة لا يسهل اجتيازها خصوصاً مع دعم العصبية القرشية لأصحاب المواقع، ومن ناحية ثالثة ما هو معروف من ثقل موقع الخوارج في الساحة الإسلامية، لأن فيهم الكثير من القراء والذين يحملون شعارات إسلامية حاولوا توظيفها في حربهم المارقة وجندوا شعاراتهم البراقة مثل: «لا حكم إلا لله». إن مجمل من قاتلهم علي من الناكثين والقاسطين والمارقين كانوا من ناحية الكيف والكم لا يقاسون بحفنة من المرتدين الأعراب يعبر عنهم الألوسي في روح المعاني: «بعض بني تميم من قوم سجاح ومثل بني فزارة»، إنهم من حيث الكيف لا يمكن أن يكونوا طرفاً في معادلة الجانب الثاني، وكان فيه من هو معدود من كتاب الوحي أو من العشرة المبشرة، أو هو ثقل رسول، أو هو من السابقين للإسلام، إلى أمثال ذلك. أما من ناحية الكم، فجيش الشام كان يعد مئة وعشرين ألفاً، وجيش أم المؤمنين يعد عشرات الآلاف، وهكذا مع العدة والسلاح والمدد من مناوئي علي بن أبي طالب من داخل المناطق التي يحكمها. فمن المكابرة والحالة هذه أن يقال إن قتال علي لهؤلاء أهون وأقل خطورة وأهمية من قتال أبي بكر للمرتدين. إن عدوّاً في بيتك أشد خطورة من شرذمة من الخارج تحاربك، ولا تشكل ثقلاً من ناحية العدد والعدة، ولم تلبث أن قمعت وانتهى أمرها، في حين أن ذيول من قاتلهم علي لا تزال للآن لهم أعداد وآراء يتمسكون بها، ولم تشجب مواقفهم حتى مع بغيهم على إمامهم، اللهم إلا عند نفر قليل شجبهم، ولكنه لم يتعدَّ الأقوال اللفظية إلى ترتيب الآثار.

هـ ـ ذكر الرازي أننا نذهب إلى أن منكر إمامة أمير المؤمنين كافر مرتد خارج عن الإسلام. ونحن لم نرتب أحكام الردة على من ينكر الإمامة، بل نعده من المسلمين بالمعنى العام، يحرم دمه وعرضه وماله وله كل حقوق الفرد المسلم، ونزوجه ونتزوج منه، وبوسع من يريد التفصيل مراجعة عقائد الإمامية للشيخ محمد رضا المظفر، وأصل الشيعة وأصولها لمحمد الحسين كاشف الغطاء ورسالة الإسلام (جـ٢، ص ٣٨٧) في بحث للشيخ محمد جواد مغنية ومصادر أخرى، فإن رأينا فيها واضح وموقفنا من المسلمين أوضح. أما الذين يذهبون إلى تكفير المسلمين فإذا أراد أحد التعرف إليهم فليرجع إلى منهاج السنة لابن تيمية وإلى الفقه على المذاهب الأربعة للجزيري، باب الكفاءة المشروطة في الزواج، وليرجع إلى «الأنكحة الفاسدة» لعبد العزيز الحداد. وإلى معظم فتاوى السلف ليعرف من هو الذي يقفز على الأدلة والبراهين، ويدّعي قولاً لانعرف أين هو بأننا نذهب إلى أن جبرائيل خان الرسالة وذهب بالوحي للنبي وليس لعلي إلى آخر هذه «الأنشودة» التي تُردَّد كل يوم.

٢ ـ الألوسي، في تفسير «روح المعاني»، قال في تفسير الآية المذكورة بالنص، عند وصوله لقوله تعالى: ﴿فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه﴾ «المراد بهؤلاء القوم، في المشهور، أهل اليمن، فقد أخرج ابن أبي شيبة، في مسنده، والطبراني والحاكم، وصححه من حديث عياض بن عمر الأشعري أن النبي ﷺ لما نزلت الآية أشار إلى أبي موسى الأشعري، وهو من صميم اليمن، وقال: هم قوم هذا. وعن الحسن وقتادة والضحاك أنهم أبو بكر وأصحابه الذين قاتلوا أهل الردة. وعن السدي أنهم الأنصار. وقيل: هم الذين جاهدوا يوم القادسيَّة، الفان من النخع وخمسة آلاف من كنده وبجيلة، وثلاثة آلاف من افناء الناس. وقال الإمامية: هم علي كرم الله وجهه وشيعته يوم وقعة الجمل وصفين، وعنهم أنهم المهدي ومن يتبعه ولا سند لهم في ذلك إلا مروياتهم الكاذبة. وقيل: إنهم الفرس لأنه ﷺ سئل عنهم فضرب بيده على عاتق سلمان الفارسي وقال: هذا وذووه.

انتهى موضع الحاجة من تفسير الآية، وفيه أمور:

أ ـ استند، في تعيين القوم، إلى آثار مروية تعين بعضهم وبعضهم الآخر استنتجه لأنهم من مصاديق مفهوم القوم الذين قاتلوا المرتدين، وإن كان قد لا يتم له ذلك كما هو في الوجه الذي يقول إنهم جيش القادسية وهم عشرة آلاف، وفيهم من غمار الناس ثلاثة آلاف، وقد حكم لهم بأنهم ممن تنطبق عليه صفات الآية **﴿يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم﴾** فقد أغمض على ذلك كله، وعدَّه وجهاً من الوجوه من دون أن يعقب عليه أو يكذبه، ولكنه في الوجه المروي بأنه المهدي وأصحابه أصابه التشنج ونبذ الرادين لذلك بالكذب، وعلى العموم أردت هنا الإشارة إلى أن هذا المقطع فسر مرة بالمأثور وأخرى بالاجتهاد في تطبيق بعض عناوين الآية على قوم معيَّنين.

ب ـ إذا سلمت بعض النصوص الواردة في تعيين القوم، من ناحية السند والمضمون، فلا يبقى لباقي الوجوه مكان، لأنها تكون حينئذ من الاجتهاد في مقابل النص، وهو مرفوض إجماعاً.

ج ـ يلفت النظر هذا التسرع في رمي الإمامية بالكذب من دون الرجوع إلى مستندهم في ذلك ومعرفة هل هو من المنقول الصحيح المستوفي للشروط أو من المعقول الذي يستند إلى وجوه متينة. وفي الوقت نفسه يدهشك هذا الإصرار على تكذيب عامة مروياتهم، كما هو مفاد قوله: «وليس لهم سند إلا مروياتهم الكاذبة»، فأين مكان الورع هنا؟ وأين حمل المسلم على الصحة؟ وكيف يتم رميهم بالكذب وفيهم من هم شيوخ للبخاري ومسلم؟ انظر كتاب: «الفصول المهمة» للسيد عبد الحسين شرف الدين.

٣ ـ القرطبي، وهذا نموذج ثالث، وهو القرطبي في تفسيره، فقد قال عند تفسير قوله تعالى: **﴿بقوم يحبهم ويحبونه﴾** ما نصه: قال الحسن وقتادة وغيرهما: نزلت في أبي بكر الصديق وأصحابه. وقال السدي: نزلت في الأنصار، وقيل: هي إشارة إلى قوم لم يكونوا موجودين في ذلك الوقت، وأن أبا بكر قاتل أهل الردة بقوم لم يكونوا موجودين وقت نزول الآية، وهم أحياء من اليمن من كنده ومن بجيلة ومن أشجع. وقيل: إنها نزلت في الأشعريين، ففي الخبر أنها لما نزلت

قدمت بعد ذلك سفائن الأشعريين وقبائل اليمن، فكان لهم بلاء في سبيل الله في زمن النبي ﷺ وكانت فتوح العراق قد تمت في زمن عمر على أيدي قبائل اليمن، هذا أصح ما قيل في نزولها والله أعلم. وروى الحاكم في المستدرك، بإسناده للنبي ﷺ، أنه أشار إلى أبي موسى الأشعري لما نزلت هذه الآية وقال: هم قوم هذا. انتهى ما ذكره القرطبي حول الموضوع، وفيه:

أ ـ إنه، كسابقيه، استند في تعيين القوم إلى النصوص في بعض الوجوه وإلى الاستنتاج في بعضها الآخر، ولكنه أكد على الوجه الخاص بأهل اليمن. وواضح من ذلك أن هؤلاء قاتلوا الكفرة والمرتدِّين. وقد علل القرطبي سبب تأكيده على أهل اليمن بأن فتح العراق كان على أيديهم. والذين قوتلوا من أهل العراق ليسوا من أهل الردة بل هم من الكفرة، والمفروض أن الآية تخاطب المسلمين وتخبرهم عن قوم يقاتلون أهل الردة، بينما هي هنا تخبر عمن يجاهد بصورة عامة، إلا أن يقال إن الآية وعدت بمن يقاتل في سبيل الله سواء أكان الذين يقاتلون من الكفرة أم المرتدين، وبهذا يوجه ما أشار به النبي ﷺ إلى أبي موسى بناءً على صحة الرواية.

ب ـ إن قول القرطبي إن أبا بكر قاتل أهل الردة بقوم لم يكونوا موجودين في وقت نزول هذه الآية، لا يستقيم ذلك لأن هذه الآية من سورة المائدة، وسورة المائدة من آخر ما نزل على رسول الله ﷺ وأكثرها نزل في المدة الواقعة ما بين عام الفتح وحجة الوداع، ولذا ورد أن النبي ﷺ قرأها في حجة الوداع وقال: أيها الناس، إنَّ سورة المائدة من آخر ما نزل فأحلوا حلالها وحرّموا حرامها، ومثله ما ورد عن عائشة زوج النبي ﷺ. يقول جبير بن نفير، دخلت عليها، فقالت لي: هل تقرأ سورة المائدة؟ قلت: نعم. فقالت: إنها من آخر ما نزل، فما وجدتم فيها من حلال فأحلوه وما وجدتم فيها من حرام فحرّموه. ذكر ذلك معظم المفسرين في تفسير سورة المائدة في أولها، ومنهم القرطبي فراجع.

وإذا كان ذلك هكذا، وقتال المرتدين وقع بعد وفاة الرسول ﷺ مباشرة، فهل يكون عمر المقاتلين الذين قاتلوا أهل الردة ثلاث سنوات بناءً على هذا القول، لأنهم لم يكونوا موجودين عند نزول الآية، وإنما وجدوا بعد ذلك، والمدة من

وجودهم إلى أن قاتلوا في حدود الثلاث سنوات؟ لا أدري كيف فات القرطبي ذلك حتى عد ذلك وجهاً ولم يتعقَّبه.

ج ـ مما يلفت النظر أنه لم يذكر علياً ومن معه، بوصفه وجهاً من وجوه الآية في تعيين القوم كما عليه المفسرون، وكما يدل على ذلك بعض الآثار والنصوص الصريحة في اتصافه بما ورد في الآية من صفات؛ إنه أمر يدعو للتّساؤل، وليس القرطبي ممن يفوته ذلك. ويدعم هذه الملاحظة التي تؤخذ عليه إصراره على دعم الوجه الذي يذهب إلى أنهم أهل اليمن وقوله إنَّه أصح ما ورد في ذلك، وليته ذكر لنا السند في ذلك حتى نعرف من هم، فإن لكثير من المفسرين ومن الرواة موقفاً من هذا الرجل ليس موضوعياً، أعني علي بن أبي طالب.

بقيت هناك مجموعة من أمهات التفاسير كتفسير الدر المنثور للسيوطي وغيره تكاد تلتقي الآراء فيها مع رأي من ذكرناه من المفسرين، فلا حاجة لإيرادها وتكفينا هذه النماذج التي ذكرناها لأنها تأخذ مكانة كبيرة في مجال التفسير.

نرجع بعد ذلك إلى تفاسير الشيعة، وأختار منها الآتي:

١ ـ مجمع البيان للطبرسي، وهو من أهم تفاسير الشيعة وأجمعها للأقوال، على حجمه غير الكبير. وهو تفسير يتصف بالموضوعية والاستيعاب والقلم المهذب. فقد قال بعد إيراد الآية المذكورة: «اختلفوا فيمن وصف بهذه الأوصاف، فقيل: هم أبو بكر وأصحابه الذين قاتلوا أهل الردة: عن الحسن وقتادة والضحاك. وقيل: هم الأنصار عن السدي. وقيل: هم أهل اليمن عن مجاهد. قال: قال رسول الله ﷺ: هم ألين قلوباً وأرأف أفئدة، الإيمان يماني والحكمة يمانية. وقال عيّاض بن غنم الأشعري: لما نزلت هذه الآية أومأ رسول الله إلى أبي موسى الأشعري، فقال: هم قوم هذا. وقيل: إنهم الفرس. وروي أن النبي سئل عن هذه الآية فضرب بيده على عاتق سلمان فقال: هذا وذووه. وقال: لو كان الدين معلقاً بالثريا لتناوله رجال من أبناء فارس. وقيل: هم أمير المؤمنين علي وأصحابه، حين قاتل من قاتل من الناكثين والقاسطين والمارقين روي ذلك عن عمار وحذيفة وابن عباس، وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبدالله. ويؤيد هذا القول أن النبي ﷺ

وصفه بهذه الصفات المذكورة في الآية، فقال، وقد ندبه لفتح خيبر: «لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله كرار غير فرار لا يرجع حتى يفتح الله على يديه»، فأما الوصف باللين على أهل الإيمان والشدة على الكفار والجهاد في سبيل الله مع أنه لا يخاف لومة لائم، فمما لا يمكن لأحد دفع علي عن استحقاق ذلك، بما ظهر من شدته على أهل الشرك والكفر ونكايته فيهم ومقاماته المشهورة في تشييد الملة ونصرة الدين والرأفة بالمؤمنين. وروي عن علي أنه قال يوم البصرة: «والله ما قوتل أهل هذه الآية حتى اليوم»، وتلا الآية، وروى علي بن إبراهيم أنها نزلت في مهدي هذه الأمة وأصحابه.

وقيل إن الآية عامة في كل من استجمع هذه الخصال حتى يوم القيامة.

وهنا أمور:

أ ـ إنه دعم بعض الوجوه بنصوص، وبعضها الآخر أسنده لمن قال به من دون ذكر أثر يدعمه كما هو الحال فيمن سبقه من المفسرين، ورجّح الوجه الذي يقول إنها نزلت في علي وأصحابه بما استدلّ به من الأدلة التي ذكرناها.

ب ـ يلاحظ أنه في أول الوجوه التي ذكرها ذكر الوجه الذي يذهب إلى أنه أبو بكر وأصحابه وأسنده لمن قال به مع الحيثية التعليلية، يعني أنه قاتل المرتدين كما قالوا.

ج ـ تلاحظ نبرة الاحترام والموضوعية في ذكر الأقوال من دون تشنج حتى ولو رجح رأياً بعينه، ولكن من دون إصرار كما لم تبدر منه عبارة غير لائقة، ولم يرم الآخرين بكذب. وبالمناسبة أرجو من القارىء أن يرجع إلى باقي فقرات الآية في التفاسير المذكورة كتفسير الرازي والألوسي وغيرهما ليرى ما أغدقوه على الشيعة من النعوت والرمي بالكذب وعدم احترام المقام الذي يفترض لمفسر كتاب الله تعالى، مما لا ينبغي، ولا يلتقي مع النهج المسلم الموضوعي، ومما يتعين أن يرتفع عنه حملة القرآن.

د ـ أرجو أن لا يفوتني أن أحتمل الغفلة في عدم ذكر القرطبي للوجه الذي يقول إنه علي وأصحابه لأن للرجل مواقف كريمة من علي وإشادة بما لَهُ من مزايا في تفسيره.

٢ ـ ومن تفاسير الشيعة «الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل» للناصر الشيرازي. قال بعد أن ذكر الآية وذكر الوجوه التي ذكرت للموصوفين بها ونصت عليهم، وأورد لبعضهم رواية تسنده ولبعضهم الآخر نسبة لقائله كمن سبقه من المفسرين، ولم يذكر الوجه الذي يذهب إلى أن المقصود أبو بكر ومن قاتل معه، كما حمل على من قال إنه أبو موسى الأشعري وقومه، واتهمه بالتعصب، واستكثر على مثله أن يكون مصداقاً للصفات الواردة في الآية، واعتبر الموضوع غير قابل لأن تنسب له أمثال هذه الإنجازات.

أكتفي بهذين النموذجين من تفاسير الشيعة، وانتقل إلى تفسير من تفاسير المعتزلة، وهو تفسير الكشاف للزمخشري. فقد قال بعد إيراد الآية، وبعد أن ذكر المرتدين على نحو ما ذكرهم الألوسي في روح المعاني، حتى كأن الألوسي اقتبس العبارة من الكشاف، ثم بدأ بذكر القوم الموصوفين بالآية وراح يذكر الوجوه في تعيينهم، فقال: «قيل لما نزلت الآية أشار رسول الله إلى أبي موسى الأشعري، فقال: قوم هذا، وقيل: هم ألفان من النخع وخمسة آلاف من كنده وبجيلة وثلاثة آلاف من أفناء الناس. وقيل: هم الأنصار. وقيل: سئل رسول الله عنهم، فضرب بيده على عاتق سلمان، وقال: هذا وذووه، ثم قال: لو كان الإيمان معلقاً بالثريا لناله رجال من أبناء فارس».

وفي هذا القول أمور هي:

أ ـ إنه كمن سبقه في صدد تعيين القوم الوارد ذكرهم في الآية، دعم بعض الوجوه بروايات وبعضها الآخر عبّر عنه بقيل، ولم يشر إلى وجود ما يدعمه من رواية أو رأي.

ب ـ لم يدعم وجهاً من الوجوه التي ذكرها، ولم يظهر منه ميل إليه، بل ذكرها كلها في خط عرضي عدا الرأي الذي يذهب إلى أن المقصود بهم أبو بكر ومن قاتل معه، وقد ظهر منه هذا عند ذكره للفئات المرتدة؛ حيث قال: «إن الله كفى أمرهم على يد أبي بكر»، ويبدو أن الرأي عنده ليس من نص وإنَّما لقتاله المرتدين الذين عرفوا بذلك، فالرأي بناءً على هذا نابع من كونه المصداق لمفهوم قتال المرتدين أو أحد المصاديق في ذلك.

ج ـ لم يذكر الوجه الذي يقول: إنَّه علي وقومه، مع أن كثيراً من المفسرين رجحوا أنه علي وقومه، بقرينة كون الآية التي تلي هذه الآية قد نزلت في علي، وهي قوله تعالى: **﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾**، وهو نفسه يروي أن هذه الآية نزلت في علي عليه السلام. ولا نقول إن هناك ملازمة بين الآيتين، ولكن ذلك من أسباب ترجيح هذا الرأي ما دامت الآيتان الكريمتان في سياق واحد.

تعقيب

تعقيباً على ما استفدناه من البحث في أجواء هذه الآية، لا بد من الإشارة إلى أمور:

١ ـ هذه المجموعة من آراء المفسرين في ما أبدته من آراء، وفيمن ذكرت ومن لم تذكر، لم تستوح أن تكشف معنى كلام الله عز وجل من داخل النص أو من القرائن المحيطة به، ويبدو فيها أثر الميل لجهة واحدة واضحاً؛ بعيداً عما تعطيه الآية وما استفاده المفسّرون أنفسهم من بعض مضامينها.

٢ ـ ففي بعض الآراء قالوا: إنها تشمل المرتدين في كل عصر، وليس في حقبة معينة، كما أن بعض من سمي مرتداً لم يصدق عليه هذا العنوان، إمّا لأنه لم ينكر ضرورية أو أنه تأول فأخطأ كما ذكرنا من قبل.

ب ـ ذكر بعضهم أن المخاطبين لم يكونوا موجودين عند نزول الآية وأنّهم يجيئون بعد ذلك وقد تومئ لذلك عبارة الآية الكريمة: **﴿فسوف يأتي الله بقوم...﴾**، مما يبعدها عن الحقبة التي ربطت بها الآية.

جـ ـ لم يتناول بعضهم الوجه القائل إنه علي وأصحابه، مع أنه أظهر المصاديق لانطباق أوصاف الآية عليه وعلى من شايعه، فأدل الصفات قوله تعالى **﴿يحبهم ويحبونهم﴾** وقد مر بنا النص الذي ورد يوم خيبر عندما دفع النبي صلى الله عليه وآله الراية لعلي.

وأما قوله تعالى: **﴿أذلة على المؤمنين﴾** الخ... فقد ذكر ابن أبي الحديد، في ترجمة علي، في شرح النهج، قال معاوية لقيس بن سعد: رحم الله أبا حسن

فقد كان هشّاً بشّاً ذا فكاهة. قال قيس: «نعم كان رسول الله ﷺ يمزح ويبسم إلى أصحابه وأراك تُسِرُّ حسواً في ارتغاء وتعيبه بذلك، أما والله لقد كان مع تلك الفكاهة أهيب من ذي لبدتين قد مسّه الطوى»، ويقول صعصعة: «كان فينا كأحدنا»[11].

وأما قوله تعالى: ﴿أعزة على الكافرين﴾، أي خشنا عليهم، مهيباً في أعينهم، فقد وصفته الأحاديث الشريفة بذلك. يقول الحافظ أبو نعيم، في حلية الأولياء، بسنده عن أبي سعيد الخدري: في ذات الله. وفي الاستيعاب لابن عبد البر، بسنده عن كعب بن عجرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «علي مخشوشن في ذات الله»[12].

أما قوله تعالى: ﴿يجاهدون في سبيل الله﴾ فذلك ما لا يحتاج لأي دليل في ثبوته للإمام علي. يقول الحاكم في المستدرك بروايته عن عبدالله بن عباس قال: لعلي أربع خصال ليست لأحد، هو أول عربي وأعجمي صلى مع رسول الله، وهو الذي كان لواؤه معه في كل زحف، وهو الذي صبر معه يوم المهراس ـ أحد ـ وهو الذي غسله وأدخله قبره[13].

وفي تهذيب التهذيب لابن حجر، في ترجمة سعد بن عبادة، قال مقسم عن ابن عباس: كانت راية رسول الله في المواطن كلها مع علي[14]. وهكذا كل صفات الآية المذكورة تنصرف إلى أظهر مصاديقها، بالإضافة إلى أنه قاتل الناكثين والقاسطين والمارقين، ونص بنفسه، وهو الصادق، يوم الجمل على أن أصحاب هذه الآية لم يقاتلوا إلاّ ذلك اليوم. ومع هذه القرائن كلها لا يسع القارىء أن يقتنع بالموضوعيّة في كثير من تفاسير المسلمين، بل يلمس محاولات واضحة للبعد بالآية عن مفادها الذي ينهض شاهداً على ترجيح بعضها على بعضها الآخر. ويبدو الرأي غير موضوعي وغير بعيد عن المؤثرات الخارجية.

٢ ـ إن هذه الظاهرة ستحمل الكثير من طلاب الهدى والمعرفة من القرآن الكريم على التأمّل طويلاً ، وربما الابتعاد عن انتهال معارف القرآن الكريم ما دام لا يمكن ذلك إلا عبر هذه الغابة المزدحمة بالعوسج والأشواك. وهو أمر يعرفه من يعاني ذلك في كتب التفسير.

٣ ـ إن نسبة فضيلة لجهة ما لمجرَّد أنها ذكرت على لسان بعض المفسرين من دون الرجوع إلى دراسة مؤهلات تلك الجهة وقابليتها للاتصاف بالنعوت التي يراد إغداقها عليها عمل غير علمي، ولا يصمد أمام التحقيق، كما مر بنا من تعيين بعض الجهات التي قالوا إن الصفات تنطبق عليها، ورووا في ذلك حديثاً، كما هو في تعيين أبي موسى الأشعري من دون الرجوع إلى تقييم هذا الرجل ومن معه والسؤال: هل يسمو إلى المستوى الذي رسمته الآية أو لا؟

٤ ـ القرآن الكريم سفينة النجاة والمتوقع أن يكون ربابنة هذه السفينة بمستوى مكانتها من حيث الارتفاع عن المستوى الغرائزي قدر المستطاع، في حين يعرف المختصون بالدراسات القرآنية ندرة الأقلام الموضوعية التي تمارس التفسير والتي ينبغي أن تتصف بالموضوعية وهدوء الأعصاب. وقد أشرت في صدر البحث إلى تعقيب الرازي والألوسي لمن خالفهما في تعيين القوم المذكورين بالآية، وأرجو من القارىء أن يرجع إلى تفسير الكشاف الذي بذيله «الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف» للحافظ ابن حجر العسقلاني؛ وذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿**يحبهم ويحبونه**﴾ ثم شرح مظاهر هذه المحبة، وليقرأ التراشق الذي دار بين ابن حجر والألوسي والزمخشري، وليتأمَّل الأسلوب المتشنج الذي استعملوه في تعيين مظهر هذه المحبة حيث دافع الألوسي وابن حجر وهاجم الزمخشري، وكانت هناك حرب شعواء، وكل ذلك صورة مخففة عن هذه الظاهرة التي يعرفها المختصون، ما يبعث على الألم ويفجع الإنسان بأمنيته التي ينشدها في عطاء من ينهلون من كتاب الله تعالى.

٥ ـ إن القرآن الكريم فسح مساحة واسعة من الحرية، ومكّن من يريد الإدلاء برأيه من ذلك، ولو تصدى للردّ عليه فسيرد عليه بأسلوب موضوعي لا تشنج فيه. لقد قال لمن يقول: إن هذا إلا أساطير ﴿**فإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله**﴾ وقال لمن نعت النبيّ بأنه ساحر مجنون: ﴿**ما أنت بنعمة ربك بمجنون**﴾ [ن/٣]. إنه بهذا الأسلوب الهادىء يربي مشاعرنا ويعوّد أعصابنا على الهدوء. ولكن الحاصل عند حملة القرآن أنه إذا تبنى أحدهم رأياً لا يرتاح إليه

الآخر، وإن كان عنده مثله ينعته بنعوت بعيدة عن الأدب المفترض بحملة القرآن أن يتحلوا به ولنأخذ مثلاً واحداً فقد ذكر الغزالي في المستصفى[١٥] عن النبي ﷺ أنه قال إن فيكم لمحدثين وإن عمراً لمنهم، ويمر كتابنا على الرواية من دون أي حساسية، ولكننا إذا ذكرنا أن علياً أخبر ببعض الأمورالغيبية رمينا بالغلو ورمينا بكل شنيع من القول. فلماذا يجوز أن يكون عمر محدّثاً؟ ولا يجوز أن يكون علي محدّثاً ولماذا لا يرمون الأول بالغلو بينما يرمى الثاني بمثله. إن هذه المعايير المتفاوتة مع وحدة المنطلق موجودة في فكرنا مع الأسف، وهنا نقول عملاً بقياس الأولوية: إذا كان يحدث مثل هذا في القرآن الكريم الذي ينبغي أن تعصمنا ساحته المقدسة عن هذه المفارقات فما بالك بالتاريخ والتحليل اللذين يكون الإنسان مادتهما والأقلام غير المنصفة وسيلتهما؟ ومتى ينطلق الباحث على سجيته ليؤدي دوراً مهماً في أبعاد المعرفة ما دام شبح المطاردة يلاحقه من دون هوادة؟ إنه سيقبع بلا شك وسيقف عنده الانطلاق المعرفي، وسينتهي إمّا إلى التنحي أو إلى اقتحام ميدان لا يعرف مقدار سلامة أجوائه.

٦ ـ إن الحل، في ما نرى، يتطلب منهاجاً قد تطول مدة تنفيذه وتصعب تهيئة مواده. وخلاصة هذا المنهج أمران:

الأول الإنسان المؤمن الذي يحمله إيمانه على الاندفاع لتلبية نداء القرآن. الذي يصرخ بالمسلمين: إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون. إن في الآية أمر بصيغة الخبر، كما أن فيها إيماءة إلى نبذ العبادة المحرمة، وهي عبادة الهوى وعبادة القيم الاجتماعية الأخرى، ثم إن الروعة كل الروعة تكمن عند قراءة الآية بوجهها المختار: إن أمتكم هذه أمةٌ واحدة، أي أنها حال وحدتها هي أمتكم، أما إذا تمزقت فليست هي أمة القرآن الذي من أوليات أهدافه توحيد الناس تحت لواء الإسلام، فضلاً عن المسلمين أنفسهم؛ حيث تكمن قوتهم في هذه الوحدة وتغلق المنافذ التي يلج منها أعداء الإسلام، وهم كثير، يتربصون بالإسلام الدوائر.

والأمر الثاني الصبر على طول المنهج، فليس من السهل أن نصل في عشية وضحاها إلى الهدف المطلوب، وكل من له صلة بمعرفة السنن والقواعد الاجتماعية

يعرف ذلك، وقد وجه الله تعالى نبيه ﷺ في القرآن الكريم إلى الصبر والاحتمال حتى ينجز الله وعده الذي يربطه بالأسباب الطبيعية، فقال تعالى له: اصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك السفهاء.

إن النتائج المرجوة من مثل هذا الصبر تفوق ما يبذل من أجله من جهد وطاقة، فإنه لا عمل أجل من هذا العمل في طريق وحدة المسلمين والانتقال بهم من هذه الأجواء الملبدة إلى أفق صاف يتميز بوضوح الرؤية، ويترك بعد ذلك لقدراتهم أن تختار الدرب. إنَّ الناظر ولو قليلاً في مسيرة الأمة الإسلامية منذ صدرها الأول إلى يومها هذا يرى بوضوح تصاعد الخط البياني في أجواء التفرقة، وفي الوقت نفسه التهرب من مسؤولية معالجتها وعدم الجرأة على وضع الاصبع على الدملة ما دام وضع الاصبع يكلف خسارة منصب أو ضياع مكسب أو يُعرض لشيء من العناد والمعاناة. إننا بلا شك من مصاديق قوله تعالى: نسوا الله فأنساهم أنفسهم.

أعود، بعد ذلك، إلى تأكيد ما سبق أن أشرت إليه من تفسير غير موضوعي للقرآن الكريم سواء كان هذا التفسير يدعم موقفاً سياسياً أم عقائدياً دينياً أم غير ذلك، لأنه في جميع ذلك لا يشرح قول الله عز وجل، وإنما يرسم قول المفسر نفسه. وما أعظم هذه الجرأة التي تتخذ من القرآن معبراً لتمرير آرائها وتستهين بما يترتب على ذلك من إساءة لمصدر حضارتنا الأهم وهو القرآن الكريم والانتهاء إلى أن نكون عاملين بغير ما أنزل الله تعالى. ومعنى ذلك عبادة غير الله تعالى وحرمان الأمة من انتهاك نبع السماء إلى شرب المياه الآسنة من منابع ملوثة. ويجدر هنا أن أذكر حادثة واحدة: يقول رشيد رضا، في تفسير المنار، عند تفسيره للآية ١٦٧ من سورة البقرة: إن الكرخي وهو أحد أئمة الأحناف قال: كل آية في القرآن أو رواية عن رسول الله ﷺ تخالف ما قدره مذهب أبي حنيفة فهي مؤوّله أو منسوخة. وليس لي هنا أي تعليق على ذلك لأن كل تعليق لا يوفي الموقف حقه ويقف قاصراً عن تصوير هذه الجرأة.

وفي ختام هذه السطور، أدعو كل واع يواجه كتاب الله تعالى بفطرته السليمة وطهره الذي صاغه الله به أن يأخذ من عطاء القرآن كما هو لم يلونه الهوى أو

تنحرف به الرغائب أو تأخذه المتاهات يميناً أو شمالاً، والله المسؤول أن يجمع قلوب المسلمين على الهدى والحق إنه المستعان على ذلك وهو حسبنا ونعم الوكيل.

ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان: إن آمنوا بربكم، فآمنّا.

الملحق

هنـاك رأي آخـر، فـي تحديد هوية المقصودين بقوله تعالى: **﴿بقومٍ يحبهم ويحبونه﴾** إلى آخر الآية وهو رأي انفرد به الأباضيّة، نسبة للفرقة التي تنتمي لابن أباض عبدالله، وإن كانوا يأبون هذه النسبة، ذلك أن مذهب الاباضية كان في البصرة وانتقل منها إلى المغرب بوساطة سلمة بن سعد في سنة ١٠٠ للهجرة، كما أن الصّفرية من فرق الخوارج كانت آراؤهم قد انتقلت للمغرب بوساطة عكرمة مولى عبدالله بن عبّاس. ولما كان البربر يؤلفون كماً كبيراً من السكان وقد راقت لهم نظريات الخوارج في كثير من الأمور، ومنها عدم التقيد بجنسية الخليفة فيمكن أن يكون غير عربي. ويبدو أن البربر اعتنقوا هذا المذهب لدوافع كثيرة لا محل لشرحها هنا، فكانت بعض الروايات يُستشفُّ منها أنها تحقق أهدافاً متنوعة منها أن البربر هم أنصار الحق وهم من يقاتل من يرتد عن هذا الدين، وفي الوقت نفسه تشير إلى أن حملة الدين الحق والعقيدة الصحيحة هم الخوارج وهؤلاء أنصارهم. فكان من ذلك أن ظهرت أحاديث أن جبرائيل أوصى النبي بتقوى الله وبأمة البربر، ومن ذلك ما هو موضع الشاهد فقد رووا عن علي أمير المؤمنين وعن عبدالله بن مسعود أنهما كانا يوصيان بالبربر وأنهما يعنيان البربر بأنهم المقصودون من قوله تعالى: **﴿فسوف يأتي اللهبقوم يحبهم ويحبونه﴾** الآية. أما مدى انطباق الصفات الباقية في الآية على هؤلاء وهل كانوا أذلة على المؤمنين أم العكس حيث قتلوا عبدالله بن خباب وجماعة وبتروا بطن زوجته وهي حامل ـ انظر مروج الذهب ـ وظفروا بنصارى فأطلقوا سراحهم، إلى بقية الصفات فلم يعنوا بها. وهذا المعنى لم يؤخذ بعين الاعتبار في كل من قيل إنه المعني بالآية، مع أنها من مقومات القوم ومن الكواشف عن كونهم حملة رسالة إيمانية تضعهم في خط الجهاد في سبيل الله

لا في سبيل آخر ولا لدوافع أخرى، وهذا المعنى بمثابة الروح في هيكل هذه الصفات المغدقة على القوم، ولكن أحداً لم يُولِه الاهتمام.

الهوامش:

(١) تعريفات الجرجاني، ومجمع البحرين مادة فسر، ولسان العرب مادة فسر، والصراط المستقيم للبروجردي، مقدمة التفسير ط بيروت، ١٤٠٣هـ، ص ١١٩، وتفسير الرازي مفاتيح الغيب، والبيان للسيد الخوئي، ص ٤٢١.

(٢) البروجردي، الصراط المستقيم، بيروت: دار الوفاء، ١٩٨٣، ١/ ٢٤٥.

(٣) نفسه، ١/ ٢٥٠.

(٤) أمالي الطوسي، ١/ ٥.

(٥) أمالي الصّدوق، ص ١٤١.

(٦) القرطبي، دار الكتب المصرية، ١/ ٦ و٧، وطبعة دار الكاتب العربي، ١٩٦٧.

(٧) انظر: بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية.

(٨) انظر: القرطبي والطبري والسيوطي في الدر المنثور في تفسير قوله تعالى: ﴿إلاَّ على أزواجهم...﴾.

(٩) انظر: تاريخ الطبري وأسد الغابة وابن عساكر والغدير للأميني، ٧/ ١٥٩.

(١٠) انظر: تفسير الرازي.

(١١) أعيان الشيعة، ١/ ٣٤٨.

(١٢) الاستيعاب والحلية بتوسط أعيان الشيعة، ١/ ٣٥١.

(١٣) المستدرك بتوسط الأعيان، ص ٣٣٦.

(١٤) انظر: تهذيب التهذيب، ترجمة سعد بن عبادة.

(١٥) الغزالي، المستصفى، ط ١٣٢٢، ج١، ص ٢٧٠.

* * *